من أخبار المسافرين (٣٤)

ابن وهب يسافر للحج ماشياً

كان سعيد بن وهب شاعراً ماجناً كثير القول في الغزل والخمر، وكان يسكن بالبصرة، ثم توطن ببغداد وتاب وتعبَّد وندم على ما كان منه، ثم أزمع السفر إلى مكة المكرمة للحج ماشياً على قدميه فبلغ منه الجهد مبلغاً عظيماً وتعب من ذلك فأنشأ يقول:

قدَميَّ اعْتَورا رمْلَ الكثيبِ ... واطرُقا الآجنَ من ماء القَليبِ
ربّ يوم رُحْتما فيه على ... زَهرة الدنيا وفي وادٍ خَصيبِ
وسماعٍ حَسنٍ مِنْ حسَنٍ ... صخَب المزهَرِ كالظَبْي الرَّبيبِ
فاحسُباً ذاكَ بهذا واصْبرا ... وخُذا من كلّ فنٍ بنصيبِ
إنما أمشي لأنّي مذْنبٌ ... فلعل الله يعفو عن ذنوبي

* * *

مُهاجر من هَجَر

أحد الشعراء بل العلماء الذين كثُرتْ أسفارهم، وتعددت رحلاتهم، حياته عجيبة، أخباره غريبة، شعره رائع، بيانه ماتع، إذا وعظ هز القلوب، وأمتع النفوس، وألهب الضمائر، وإذا تغنّى بالشعر أطرب النفوس، وأمتع العقول، وهَوْجلت الجِمال، وتجلَّى الجَمال، وإذا تغزّل قلت هذا عاشقٌ متولِّه، ومُحِبٌّ متيم، لكنه غزله شريف، وشعره عفيف، وقلبه نظيف.

ذلك هو الشيخ عبدالعزيز بن حمد بن عبداللطيف آل مبارك من بني تميم، ولد بمدينة الهفوف «الأحساء» عام ١٢٧٩هـ، وهي المعروفة في التاريخ بـ«هَجَرَ».

حفظ القرآن الكريم في سن مبكرة، ثم توجه إلى مكة وأقام بها عدة سنوات تلقى خلالها حظًّا طيباً من العلم، ثم عاد إلى بلده وعكف على طلب العلم، ثم عاد إلى مكة عام ١٣٠٨هـ للحج ومرّ على عددٍ من البلدان مثل حائل والقصيم، وأقام بها أياماً في ضيافة أهلها، ثم كثرت بعد ذلك رحلاته إلى دول الخليج، وقد اشتهر وذاع صيته، فكان أمراء البلدان يوجِّهون إليه الدعوات ليقوم بالتعليم والنصح والإرشاد والخطابة، فسافر إلى العراق، وترك بها أثراً طيباً وحيّاه شعراؤها وأشادوا به فقال قائلهم:

حَبْرٌ متى صعد المنابر أطرقتْ ... عظماء أهل الأرض من إعظامه
تأبى العقول بأن زاخر علمه ... من كسبه وتقول من إلهامِه

شهـد العفـاةُ وليلُـهُ ونهـارُهُ بِصِـلاتـه وصَـلاَتِـه وصيـامـه

ثم تابع رحلاته من العراق إلى الكويت، وقد بقي يتردد على العراق وفاءً بعهده لهم، وحرصاً على تلبية رغبتهم، ثم تزوج هناك وأقام مدة من الزمن، فلما أن توفّى الشيخ فالح السعدون، أحد رؤساء القبائل المشهورة هناك وممن كان هذا المسافر في ضيافته، وبعد أن أحس الشيخ عبدالعزيز بتغير الأحوال في العراق وانتشار المنكرات وفساد الأخلاق ترك العراق على مضض وفي قلبه حسرة وبين جوانحه أسى، فكتب قصيدة في سفره أرسلها إلى الشيخ غالب آل سعدون في البصرة عام ١٣٢٩هـ، يقول فيها:

أجَلْ إنَّها الأيام تُرْضي وتُغْضِبُ وآونَـةً تُقْصـي وحينـاً تُقـرِّبُ
ويوماً لها ثغر من الأنس باسمٌ ويوماً لها بالبؤس وجه مُقطِّب
وآونـةً بالوصـل تزهـو رياضُـها وأُخرى بشحط البين تلوي وتجدبُ
وما المرء إلاَّ من يُوَطِّنُ نفسه على حالتيها حين تُعْطِي وتَسْلُبُ
فلا يزدَهِيه طيبُ عيشٍ لعلمِهِ بأن الصَّفا فيها وإن راق يَذْهَبُ
ولا يُعْظِمُ الخَطْبَ المُلِمَّ لهوله وُثُوقاً بلطفِ الله واللُّطفُ أقربُ
فيا غالبَ الأمجادِ في كلِّ مشهدٍ إذا حشـدوا للمكـرمـات وألَّبـوا
ويا مالكاً رقِّي بحُسْنِ إخائِهِ فمالي براحٌ عن هواهُ ومذْهَبُ
أتاني كتابٌ منك بالفضل شاهد كما أنهُ عن حُرْقَةِ البين مُعْرِبُ
لقد زاد قدري أن مثلك لي أخٌ يَحِنُّ إلـى قُـرْبـي إليـهِ ويَـرْغَـبُ
لئن جرتِ الأقدارُ بالبُعْدِ عنكُمُ ومن بيننا حالَتْ قِفارٌ وسَبْسَبُ
وظلَّتْ بحيث الكتبُ منكم عزيزةً ولا مُخْبـرٌ عنكـم يفيـدُ ويعْـرِبُ
فعندي لك الشوقُ الشديدُ ولوعةٌ تُؤَوِّبُني ما لاحَ في الأفقِ كوكَبُ

وذكـرك بـالأنفـاسِ يُقْـرَنُ مثلَمـا خيالُكَ لا عنْ ناظِرِ القلْبِ يُحْجَبُ
فيا آلَ سعْدُونٍ بَقِيتُمْ لذي الدُّنَا جمالاً بِكُمْ أسْنَى المكارمِ تُنْسَبُ
غرامي بكم ذاك الغرامُ وحُبُّكُمْ يزيدُ على مرِّ الليالي ويعْذُبُ
فما شاقَنِي بعد الجزيرة منزلٌ ولا لَذَّ لِي من بعد دجلة مشربُ
بلى غُربةُ الإسلام يا صاح إنَّها تحثُّ على بعد المزار وتُطْنِبُ
وتدعو إلى هجر العراق وأهلِهِ وإن حلَّ فيه الأنجَبُ المتحبِّبُ
ألا ترَنِي أصبحْتُ حَيْرانَ واجماً أفَكِّر في أيِّ الطريقين أركبُ
عُلاكُمْ وما عَوَّدتُمُ من جميلِكمْ ووُدِّكُمُ تدعو إليه وتجذبُ
وما قد فَشَا من مُنْكَرٍ وضلالةٍ ومن فتنٍ عنكُمْ تَصُدُّ وتَحْجُبُ
ولا ملجأٌ كلاَّ ولا وَزَرٌ سوى رجاءِ كريمٍ عطْفُهُ مُتَرقَّبُ
عسى نظرةٌ من جُودِهِ والتفاتَةٌ تُدَنِّي إلى رضوانِهِ وتُقرِّبُ
عسى نفحةٌ تُحْيي القلوبَ بروْحِها ويُكْشَفُ عن وجهِ البصائر غَيْهَبُ
فَنَلْتزِمَ الشَّرْعَ الشَّرِيفَ بجَمْعِنا وعن سُنَنِ التَّنْزِيلِ لا نتنكَّبُ
وذلك أسْمَى ما نَودُّ ونبتغي وليس على الله المطالبُ تَصْعُبُ
وأزكى صلاة الله ثمَّ سلامُهُ على من به طاب الحجازُ ويَثْرِبُ

وهكذا استمر هذا الشيخ الداعية الشاعر المجاهد في رحلاته، فذهب إلى الكويت وأقام بها مدةً يخطب ويدرس ويعلّم، وتخرج على يديه أناسٌ كثير، وسافر كذلك إلى دُبي وأقام بها مدة للتعليم والتدريس في بعض مدارسها، ويقال إنه سافر إلى الهند مرتين، وقد وفد على الملك عبدالعزيز آل سعود واستضافه ورحب به وقد كان مثالاً في سماحة الخلق، وكرم النفس، وبسطة العلم، وكان يصحب معه في رحلاته عدداً

غفيراً من الناس للتعليم وينفق عليهم من ماله، ويذكر علماء الأحساء أنه عندما أحسّ بدنو أجله قال: ما أسفتُ على شيء أسفي على علم بين جنبيَّ لم أستطع أن أُورِّثه غيري. توفي عام ١٣٥٩هـ بالأحساء، رحمه الله رحمة واسعة.

ولقد كان هذا الداعية المجاهد يتميز بشاعرية فذَّة ومعان جزلة، ونبرة صادقة في أشعاره، وقد أبدع في أغراض متعدِّدة مثل الرسائل، والمدائح، والغزل، والزهديات، والرثاء، وغير ذلك، وإنك لتعجب لرجلٍ تقوم حياته كلها على السفر والرحلات والنضال، داعياً ومرشداً، وخطيباً وموجهاً، ثم تجد عنده من الإحساس بالجمال، والإعجاب بالحسن، والشعور بهمسات الحب والدقة في الوصف، وحسن التشبيه، ما يأخذ بالألباب ويهزُّ النفوس.

وتعال معي الآن بعد هذا الموجز اليسير عن هذا الشخصية العجيبة وهذا الرجل المتوقد الممتلئ حيوية ونشاطاً في زمن يكثر فيه الجهل والفقر والخمول، فكان مثلاً للهمة العالية.

تعال معي إلى الجانب الآخر من جوانب هذه الشخصية العجيبة، تعال معي إلى الشعر الرائع، والخيال الخصب، والكلمة المجنَّحة، قال يعتذر إلى ابني عمه: الشيخ صالح، والشيخ أحمد ابني محمد بن عبداللطيف آل مبارك:

متى عنَّ لي من ذكر قوميَ سانحُ ... فلا تسألاَ ماذا تُلاقِي الجوانحُ
وإن هبَّ غربيُّ النسيم فبرْدُهُ ... له القلب مني قبل أنْفِي مُصَافحُ
وإن ذَكَرُوا الأحْسَاءَ فالقلبُ خافقٌ ... كما خفقت بالرَّاحتَيْن المرَاوحُ

لـي الله مـن ذي لـوعـةٍ متجَلِّـدٍ ... له كلَّ حينٍ من مآقيْهِ فاضحُ
أخِـي فِكْـرةٍ تعتـادُهُ أيُّ خطـرةٍ ... لزَنْدِ الأسَى بالقلب منها قوادحُ
إذا هـاتـفُ الأشـواق نـادى بلبِّـه ... أجاب وعاصى في الهوى من يُنَاصِحُ
وجاذب قُمْرِيَّ الحمامِ لُحُونَهُ ... وأضحى له دونَ الرِّفَاقِ يُطَارِحُ
وأجدِرْ بمشتاقٍ ألُوفٍ تقاذَفَتْ ... به عن ديار الأكرمينَ المطاوِحُ
هُو البيْنُ فيه ذُو العزا مُتَهَتِّكٌ ... ومُنْتَحِـلُ الكِتْمَـانِ بـالسِّـرِّ بـائِـحُ
خليليَّ ما صَبْري الغدَاةَ بِمُسْعِفِي ... على أنَّني نحـو التصبُّـر جـانِـحُ
فهلْ أحمَدُ ابْنُ العمِّ عَمِّي مُحَمَّدٍ ... مُحَارِبُ بعدي للعَزَا أمْ مُصَالِحُ
وهل عندَهُ شوقٌ كشوقي وهل به ... غـرامٌ مُجِـدٌّ أم غـرامٌ مُمَـازِحُ
وهل راعهُ البينُ المُشِتُّ فَدَمْعُهُ ... من الجفنِ مُنْهَلٌّ على الخدِّ سافحُ
وهل هو مثلي كُلَّمَا هاجَهُ الأسى ... يُسَاجِلُ وُرْقاً بالحمى ويُنَاوِحُ
أم البعـدُ أنسـاهُ الـرِّفـاق وراقَـهُ ... مَغَـانٍ وجنَّـاتٌ زَهَـتْ وبطـائـحُ
وهل صالحٌ لا أبعد الله صالحاً ... على العهد باقٍ أم تَنَاسَاهُ صالحُ
أمولىٰ الموالي بحر جودك موردي ... إذانضبت دوني النطاف الضحاضحُ
ويارب طال البعد بيني وبين من ... أحبُّ وأعيت من سواك المناجحُ
فَصِلْنا بمن نهواه بالسعد والهنا ... فخطب النوى يا عالم السرِّ فادح
وَصـلِّ وسلِّـم منعمـاً متفضـلاً ... على من به طابت منىٰ والأباطح
وأصحابه سُمّ العدا أنجم الهدى ... كذا الآل ما غنى على الأيك صادح

وقال في أبيات له يودِّع بها محبيه في دُبي بعد أن رحل عنهم يريد مكة والمدينة:

حضر الأصحاب من كلِّ فتىً ... كـامـل الأخـلاق للمجـد كسـبْ

ودَّعـونـا والمـآقـي ذُرفٌ فـركبنا صحوةً مع من ركِبْ
قال لي الأصحاب لما ودَّعوا أبهذا الحال ترضى يا مُحب
قلت فالعذر فلولا أنني قاصدٌ «طيبة» نفسي لم تطب

وإليك هذه القصيدة الرائعة لهذا الشاعر المبدع، وقد بدأها بمقدمة غزلية من الغزل العفيف، وقد اخترت منها بعض أبياتها لأنها قصيدة طويلة:

ذكرَ الرَّبْعَ وأهْليهِ فأنَّا وشجاهُ البارقُ السَّاري فحَنَّا
وغريبُ الدَّارِ يخْلُو بالأسَى والعبابات إذا ما الليلُ جنَّا
يا أخي يا عابدَ الرحمن يا مُنْجدي يا مُسْعِدِي حساً ومعْنَى
يا سميري في الهوى إذا لافتى منك أولى بالوفا فيمن علمْنَا
قمْ فطارحْنِي أحاديثَ الهوَى وارْو لي أخبارَ عَفْرَاءَ ولُبْنَى
أسفاهُ لشبابٍ ينقضي عاطلاً من وصل ريَّا القدِّ حَسْنَا
طال ليلي في «أبي ظبْي» ولا ظبْيَ لي فيه يُضاهي البدْرَ حُسْنَا
أقصر الليلَ به مُقْتطفاً ثمرَ اللَّذَّات من هنَّا وهنَّا
من أقاحٍ حوله الوردُ إلى نرجسٍ من فوق تُفَّاحٍ أبَنَّا
فهو إنسانٌ وبُسْتَانٌ وإن شئتَ كان البدرَ والظَّبْيَ الأغَنَّا
إن رنَا جرَّدَ سيْفاً فاتكاً أو تثَنَّى هزّ من عطفيه لَدْنَا
ويريني اللُّؤلُوَ الرَّطْبَ كما شئْتُ منظوماً متى يُضْحِكُ سِنَّا
ويُريني ما نَضَا البُرْقُع عنْ وجههِ كيْفَ تبدَّى الشَّمسُ وَهْنَا
وإذا أرْسَلَ جَثْلاً وارِداً فوْقَ مَتْنَيْه أراني اللَّيلَ مثْنَى
فإذا ما سعدُنَا ألَّفَنَا واطَّرَحْنَا العُتْبَ والإعْتَابَ عَنَّا

وتجـاذَبْنَـا حـوَاشِـي سَمـرٍ ... هل رأيْتَ الرَّوْضَ والعُودَ المُرِنَّا
أخـذَ الـدَّلَّـة مـن كـانُـونِهَـا ... بشمـالٍ وأدَارَ الكـاسَ يُمْنَـى
وانْبَـرَى يسكُـبُ مـن يـاقُـوتَـةٍ ... في لُجَيْنِ الكاسِ ما نُسْمِيهِ بُنَّا
كلَّمـا أنْعَـمَ بـالْكـاسِ مَـلاَ ... مِثْلَهَا من طَرْفِهِ السّاجِي فَثَنَّى
وسعـدْنـا وشَقِـي حـاسِـدُنَـا ... بـالْتِئَـام واعتنـاقٍ كيـف شئْنَـا
فإذا ما الشُّهْبُ للغَرْبِ انْتَحَتْ ... مِثْلَ أسْرَاب القَطَا يطْلُبْنَ وكْنَا
وتغشـاهُ الكـرى وسَّـدْتُـهُ ... سـاعِـدِي ثـم تعـانقنـا وبتنـا
آمنيـن العـارَ والإثـمَ فـلا ... عبرتْ بي فرحةٌ تُعْقبُ حُزْنَا
يـا لهـا أمنيـةٌ لـم تعـدُهَـا ... مُنْيَتـي إلاَّ إلـى أسْنَـى وأسْنَـى
نفْحَـةٌ قـدسيـةٌ تُسْعِـدُنـي ... بـرضـا الله الـذي أغْنَـى وأقْنَـى
وتـرقِّـي رُتْبـةٍ فـي العلـم مـن ... دونها المرِّيخُ بالأعمالِ تُسْنَى
وسُمُـوٌّ فـي العُـلا تصْحَبُـهُ ... قُـدْرَةٌ بـالمـالِ والحـال لأهْنَـا
ولقـا الأصحـابِ مـن كـلِّ فتـىً ... حسنِ الأخلاقِ بالفضل مُعَنَّى

ونكتفي بهذا القدر من أخبار هذ المسافر العملاق رحمه الله وغفر له وأسكنه فسيح جناته.

«للمزيد راجع كتاب شعراء هَجَر لعبدالفتاح الحلو»